البَابُ السادس [1]

فى زوال الدنيا . . وإقبال الآخرة

---

(١) كتاب النهاية أو الفتن والملاحم للإمام أبى الفداء إسماعيل بن كثير (٧٠١ - ٧٧٤ هـ) تحقيق الدكتور/ طه محمد الزينى جـ ١ طبعة أولى - دار الكتب الحديثة . وهو المرجع الأساسى للأبواب التالية بتصرف .

فى ذكر زوال الدنيا وإقبال الآخرة

أول شيء يطرق أهل الدنيا بعد وقوع أشراط الساعة نفخة الفزع ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى يأمر إسرافيل فينفخ فى الصور نفخة الفزع . فيطولها ، فلايبقى أحد من أهل الأرض ولاالسموات إلا فزع ، إلا من شاء الله ، ولايسمعها أحد من أهل الأرض إلا أصْغى ليتاً ورفع ليتاً ؛ أى رفع صفحة عنقه ، وأمال الأخرى ، يستمع هذا الأمر العظيم الذى قد هال الناس ، وأزعجهم عما كانوا فيه من أمر الدنيا ، وشغلهم بها ، ووقوع الأمر العظيم.

قال تعالى : (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين . وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون) .

وقال تعالى : (ومايظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق) وقال تعالى : (فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير.على الكافرين غير يسير) وقال تعالى : (قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير) ، ثم بعد ذلك بمدة يأمره الله تعالى فينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السموات ومن فى الأرض ، إلا من شاء الله ، ثم يأمره فينفخ فيه أخرى فيقوم الناس لرب العالمين . وقال الله تعالى : (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين

والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لايظلمون . ووفيت كل نفس ماعملت وهو أعلم بمايفعلون) وقال تعالى : (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . ماينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ، فلايستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون . ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون. قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون.فاليوم لاتظلم نفس شيئا ولاتجزون إلا ماكنتم تعملون) .

وقال تعالى : (فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة) وقال تعالى : (ومأأمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) وقال تعالى : (ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً . وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً) .

وقال تعالى : (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون) .

وقال تعالى : (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة.وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية. يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية) .

وقال تعالى : (يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سراباً) .

وقال تعالى : (يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً) الآيات .

وقال الإمام أحمد : « فى حديث ذكره » : عن عبد الله بن عمرو قال : قال أعرابى : « يارسول الله ، ماالصور؟ قال : قرن ينفخ فيه . وفى قوله تعالى : (فإذا نقر فى الناقور) ، قال : قال رسول الله ﷺ : كيف أنتم وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ؟ فقال

أصحاب رسول الله ﷺ : يارسول الله كيف نقول ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا ، انفرد به أحمد .

كذلك قال الإمام أحمد « فى حديث ذكره » : عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ ، قال : كيف أنتم وقد التقم صاحب القرن القرن ، وحنى جبهته ، وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر ، قال المسلمون : يارسول الله ، فما نقول ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا .

وقال الإمام أحمد (فى إسناد ذكره) : عن أبى سعيد الخدرى ، قال : ذكر رسول الله ﷺ صاحب الصور ، فقال : عن يمينه جبريل ، وعن يساره ميكائيل ، عليهم السلام .

وقال ابن ماجه : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة «فى حديث ذكره» عن أبى سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : إن صاحبى الصور بأيديهما أو فى أيديهما قرنان ، يلاحظان النظر : متى يؤمران .

وقال ابن أبى الدنيا : أخبرنا عبد الله بن جرير عن يزيد بن الأصم ، قال : قال ابن عباس : إن صاحب الصور لم يطرف منذ وكل به ، كأن عينيه كوكبان دريان ينظر تجاه العرش مخافة أن يؤمر أن ينفخ فيه ، قبل أن يرتد إليه طرفه ، وحدثنا أبو عبد الرحمن بن عمر مشكدانة « فى حديث ذكره » عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ماأطرف صاحب الصور منذ وكل به ، مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه ، كأن عينيه كوكبان دريان .

حديث الصور بطوله

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده « فى حديث ذكره » عن أبى هريرة ، قال : حدثنا رسول الله ﷺ ، وهو فى طائفة من أصحابه ، قال : إن الله تعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور ، فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه شاخصاً إلى العرش ببصره ، ينتظر متى يؤمر ، قال : قلت : يارسول الله ، ماالصور ؟ قال : قرن ، قال : كيف هو ؟ قال : عظيم ، قال : والذى بعثنى بالحق ، إن عظم دارة فيه لَعَرْض السموات والأرض ينفخ ثلاث نفخات ، الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة القيام لرب العالمين ، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى ، فيقول : انفخ نفخة الفزع ، فينفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، ويأمره تعالى ، فيمدها ويطيلها ، ولايفتر ، وهى التى يقول الله : (وماينظر هؤلاء إلا صيحة واحداة مالها من فواق) ، فتسير الجبال سير السحاب ، فتكون سراباً وترتج الأرض بأهلها رجًّا ، فتكون كالسفينة الموبقة فى البحر ، تضربها الأمواج تكفأ بأهلها ، كالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح ، ألا وهو الذى يقول الله تعالى : (يوم ترجف الراجفة.تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة . يقولون) الآية . فيميد الناس على وجهها وتذهل المراضع ، وتضع الحوامل ، ويشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة من الفزع ، حتى تأتى الأقطار فتلقاها الملائكة تضرب وجوهها ، فترجع ، فيولون مدبرين : مالكم من الله من عاصم ، ينادى بعضكم بعضاً ، وهو الذى يقول الله تعالى : يوم القيامة ، يوم التناد ، فبينما هم على ذلك إذ تصدعت

الأرض تصدعين من قطر إلى قطر فرأوا أمراً عظيماً لم يروا مثله ، وأخذهم لذلك من الكرب والهول ماالله به عليم ، ثم تطوى السماء ، فإذا هى كالمهل ، ثم انشقت السماء فانثرت نجومها ، وخسفت شمسها ، وقمرها .

قال رسول الله ﷺ : الأموات لا يعلمون بشىء من ذلك ، قال أبو هريرة : يا رسول الله ، من استثنى الله حين يقول : ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ؟ قال : أولئك الشهداء ، إنما يصل الفزع إلى الأحياء وهم أحياء عند ربهم يرزقون ، فوقاهم الله فزع ذلك اليوم ، وأمنهم منه ، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه ، وهو الذى يقول الله تعالى : (يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) .

فيمكثون فى ذلك العذاب ماشاء الله ، إلا أنه يطول ، ثم يأمر الله إسرافيل ، فينفخ نفخة الصعق ، فيصعق أهل السموات ، والأرض ، إلا ماشاء الله ، فإذا هم خمدوا ، جاء ملك الموت إلى الجبّار ، فيقول : يارب : مات أهل السموات والأرض ، إلا من شئت فيقول الله تعالى ، وهو أعلم بمن بقى : فمن بقى ؟ فيقول : يارب : بقيت أنت الحى الذى لاتموت ، وبقيت حملة عرشك ، وبقى جبريل ، وميكائيل ، وبقيت أنا ، فيقول الله عز وجل : ليمت جبريل ، وميكائيل ، فينطق الله العرش فيقول : يموت جبريل ، وميكائيل ؟ ، فيقول : اسكت ، فإنى كتبت الموت على كل من تحت عرشى ، فيموتان ، ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول : يارب ، قد مات جبريل ، وميكائيل ، فيقول ، وهو أعلم بمن بقى : فمن بقى ؟ فيقول : يارب ، بقيت أنت الحى الذى لاتموت ، وبقى حملة عرشك ، وبقيت أنا ، فيقول الله

تعالى : فليمت حملة عرشى ، فيموتون ، ويأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل ، ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار عز وجل ، فيقول : قد مات حملة عرشك ، فيقول ، وهو أعلم بمن بقى : فمن بقى ؟ فيقول : يارب ، بقيت أنت الحى الذى لاتموت ، وبقيت أنا ، فيقول الله له : أنت خلق من خلقى ، خلقتك لما رأيت ، فمت ، فيموت ، فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار ، الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد كان آخراً كما كان أولاً ، طوى السموات والأرض ، كطى السجل للكتاب ، ثم دحاهما ، ثم تلقفها ثلاث مرات ، وقال : أنا الجبار ، ثلاثاً ، ثم يهتف بصوته : لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات ، فلايجيبه أحد ، ثم يقول لنفسه : لله الواحد القهار ، ويبدل الله الأرض غير الأرض والسموات ، فيبسطها ، ويسطحها ، ويمدها مدّ الأديم العكاظى ، لاترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة فإذا هم فى مثل هذه المبدلة فى مثل ماكانوا فيه من الأولى ، من كان فى بطنها كان فى بطنها ، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها ، ثم ينزل الله عليكم ماء من تحت العرش ، ثم يأمر الله السماء أن تمطر أربعين يوماً ، حتى يكون الماء فوقهم اثنى عشر ذراعاً ، ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت كنبات الطراثيث ، أو كنبات البقل ، حتى إذا تكاملت أجسادهم ، فكانت كما كانت ، قال الله تعالى : لتحى حملة عرشى ، فيحيون ويأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور ، فيضعه على فيه ، ثم يقول : ليحى جبريل : وميكائيل فيحييان ، ثم يدعو الله الأرواح فيؤتى بها تتوهج أرواح المسلمين نوراً ، والأخرى ظلمة فيقبضها جميعاً ، ثم يلقيها فى الصور ، ثم يأمر الله إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث ، فتخرج الأرواح كأنها النحل . قد ملأت مابين السماء والأرض . فيقول الله تعالى : وعزتى وجلالى لترجعن كل روح إلى جسدها . فتدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد . فتدخل فى الخياشيم . ثم

تمشى فى الأجساد مشى السم فى اللديغ . ثم تنشق الأرض عنكم . وأنا أول من تنشق الأرض عنه ، فتخرجون منها سراعاً . وإلى ربكم تنسلون (مهطعين إلى الدّاع يقول الكافرون هذا يوم عسر) حفاة عراة غرلاً غلفاً . ثم تقفون موقفاً واحداً ، مقدار سبعين عاماً ، لاينظر إليكم ولايقضى بينكم . فتبكون حتى تنقطع الدموع . ثم تدمعون دماً . وتعرقون حتى يبلغ ذلك منكم أن يلجمكم أو يبلغ الأذقان فتضجون وتقولون : من يشفع لنا إلى ربنا يقضى بيننا ؟

من أحق بذلك من أبيكم آدم ؟ خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وكلمه قبلاً ، فيأتون آدم ، فيطلبون ذلك إليه ، فيأتى ، فيقول : ماأنا بصاحب ذلك ، ثم يستقرون الأنبياء نبيًّا نبيًّا ، كلما جاءوا نبيًّا أبى عليهم ، قال : رسول الله ﷺ : حتى يأتونى ، فأنطلق ، حتى آتى الفحص ، فأخر ساجداً ، قال أبوهريرة : يارسول الله ، ما الفحص ؟ قال قدام العرش ، حتى يبعث الله إلىّ ملكاً ، فيأخذ بعضدى فيرفعنى ، فيقول لى : يامحمد ، فأقول : نعم ، لبيك يارب ، فقال : ماشأنك ؟ وهو أعلم ، فأقول : يارب ، وعدتنى الشفاعة ، فشفعنى فى خلقك ، فاقض بينهم ، فيقول : شفعتك ، فآتيكم فأقضى بينكم ، قال رسول الله ﷺ : فأرجع ، فأقف مع الناس ، فبينا نحن وقوف إذ سمعنا حسًّا من السماء شديداً ، فنزل أهل السماء الدنيا مثل من فى الأرض من الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم ، وأخذوا مصافهم قلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ قالوا : لا ، وهو آت ثم ينزل أهل السماء الثانية ، بمثل من نزل من الملائكة ، ومثل من فيها من الجن ، والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم ، وأخذوا مصافهم ، وقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ قالوا : لا ، وهو آت ، ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف حتى ينزل الجبار تبارك وتعالى فى ظلل من الغمام والملائكة ،

ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، وهم اليوم أربعة ، أقدامهم على تخوم الأرض السفلى ، والسموات إلى حجرهم ، والعرش على مناكبهم ، لهم زجل من تسبيحهم ، يقولون : سبحان ذى القوة والجبروت ، سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان الحى الذى لايموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ، ولا يموت ، فيضع الله كرسيه حيث يشاء من أرضه ، ثم يهتف بصوته فيقول : يامعشر الجن والإنس ، إنى قد أنصت لكم من يوم خلقتكم إلى يومكم هذا ، أسمع قولكم ، وأرى أعمالكم ، فأنصتوا لى . إنما هى أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلايلومن إلا نفسه ، ثم يأمر الله جهنم فيخرج منها عنق ساطع ، مظلم . ثم يقول : ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبـدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون . هذه جهنم التى كنتم بها تكذبون ، أو توعدون (شكّ أبو عاصم) وامتازوا اليوم أيها المجرمون ، فيميز الله الناس وتجثو الأمم ، يقول الله تعالى : (وترى كل أمة جـاثية كل أمة تدعى إلى كتـابها اليوم تجزون ماكنتم تعملون) فيقضى الله بين خلقه ، إلا الثقلين – الإنس ، والجن – فيقضى بين الوحوش ، والبهائم ، حتى إنه ليقيد الجَمَّاء من ذات القرن ، فإذا فرغ الله من ذلك ، فلم تبق تبعة عند واحدة لأخرى ، قال الله لها : كونى تراباً . فعند ذلك يقول الكافر : ياليتنى كنت تراباً ، ثم يقضى الله تعالى بين العباد ، فيكون أول مايقضى فيه الدماء ، ويأتى كل قتيل فى سبيل الله ، ويأمر الله فيأخذ من قتل فيحمل رأسه تشخب أوداجه ، فيقول : يارب فيم قتلنى هذا ؟ فيقول تعالى ، وهو أعلم : فيم قتلته ؟ فيقول : يارب قتلته لتكون العزة لك ، فيقول الله : صدقت ، فيجعل الله وجهه مثل نور السموات ، ثم تسبقه الملائكة إلى الجنة ، ثم يأتى كل من كان

يقتل على غير ذلك ، ويأمر من قتل فيحمل رأسه تشخب أوداجه ، فيقول : يارب ، فيم قتلنى هذا ؟ فيقول ، وهو أعلم : فيم قتلته ، فيقول : يارب ، قتلته لتكون العزة لى ، فيقول له : تعست ، ثم ماتبقى نفس قتلها إلا قتل بها ، ولا مظلمة إلا أخذ بها ، وكان فى مشيئة الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء رحمه ، ثم يقضى الله بين من بقى من خلقه حتى لاتبقى مظلمة لأحد عند أحد إلا أخذها الله للمظلوم من الظالم ، حتى إنه ليكلف شائب اللبن بالماء ثم يبيعه أن يخلص اللبن من الماء ، فإذا فرغ الله من ذلك نادى منـاد يسمع الخلائق كلهم فقال : ليلحق كل قوم بآلهتهم وما كانوا يعبدون من دون الله ، فلايبقى أحد عبد من دون الله شيئاً إلا مثلت له آلهته بين يديه ، فيجعل يومئذ ملك من الملائكة على صورة عزير ، ويجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى ، فيتبع هذا اليهود ، ويتبع هذا النصارى ، ثم قادتهم آلهتهم إلى النار ، فهذا الذى يقول الله تعالى : (لوكان هؤلاء الهة ماوردوها وكـل فيها خالدون) فإذا لم يبق إلا المؤمنون فيهم المنافقون جاءهم الله بما شاء من هيبته ، فقال : يأيهـا الناس ، ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم ، وماكنتم تعبدون ، فيقولون : والله مالنا إله إلا الله ، ماكنا نعبد غيره ، فينصرف عنهم وهو الله ، الذى يأتيهم فيمكث ماشاء الله أن يمكث ثم يأتيهم ، فيقول ذهب الناس ، فالحقوا بآلهتكم ، وماكنتم تعبدون ، فيقولون : والله مالنا إله إلا الله ، وماكنا نعبد غيره فيكشف عن ساقه ويتجلى لهم من عظمته مايعرفون أنه ربهم ، فيخرون سجداً على وجوههم ، ويخر كل منافق على قفاه ، ويجعل الله أصلابهم كصياصى البقر ، ثم يأذن الله لهم فيرفعون رءوسهم ، ويضرب الله بالصراط بين ظهرانى جهنم كحد الشعر ، أو كعقد الشعر ، وكحد السيف عليه كلاليب وخطاطيف وجسد دونه جسر دحض مزلة فيمرون كطرف البصر أو كلمح البرق ، أو كمر الريح ، أو كجياد الخيل ، أو

كجياد الركاب ، أو كجياد الرجال ، فناج سالم ، وناج مخدوش ، ومكدوس على وجهه فى جهنم ، فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة ، قالوا : من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة ؟ فيقولون : من أحق بذلك من أبيكم آدم ، إنه خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه وكلمه قبلاً ، فيأتون آدم ، فيطلب ذلك إليه ، فيذكر ذنباً ويقول : ماأنا بصاحب ذلك ، ولكن عليكم بنوح ، فإنه أول رسل الله ، فيؤتى نوح فيطلب ذلك إليه ، فيذكر ذنباً ، ويقول : ماأنابصاحب ذلك ، ولكن عليكم بإبراهيم ، فيطلب ذلك إليه ، فيذكر ذنباً ، ويقول : ماأنا بصاحبكم عليكم بموسى ، فيطلب ذلك إليه ، فيذكر ذنباً ، ويقول لست بصاحب ذلك ، ولكن عليكم بروح الله وكلمته عيسى بن مريم ، فيطلب ذلك إليه ، فيقول : ماأنا بصاحب ذلك ، ولكن علُيكم بمحمد ﷺ ، قال رسول الله ﷺ : فيأتونى ولى عند ربى ثلاث شفاعات وعدنيهن ، فأنطلق فآتى الجنة ، فآخذ بحلقة الباب ، فأستفتح ، فيفتح لى ، فأحيَّا ويُرحّب بى ، فإذا دخلت إلى الجنة فنظرت إلى ربى عز وجل خررت له ساجداً ، فيأذن الله من حمده وتمجيده بشىء ما أذن به لأحد من خلقه ، ثم يقول الله لى : ارفع يامحمد ، واشفع تشفع ، وسل تعطه ، فإذا رفعت رأسى قال الله لى وهو أعلم : ماشأنك ؟ فأقول : يارب ، وعدتنى الشفاعة ، فشفعنى فى أهل الجنة يدخلون الجنة ، فيقول الله عز وجل : قد شفعتك ، وأذنت لهم فى الدخول ، فكان رسول الله ﷺ يقول : والذى بعثنى بالحق ماأنتم فى الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم « الحديث بطوله » .

قال : وإذا وقع أهل النار وقع فيها خلق من خلق ربك أوقعتهم أعمالهم ، فمنهم من تأخذ قدميه لاتجاوز ذلك ، ومنهم من تأخذه إلى حقويه ، ومنهم من تأخذ جسده كله إلا وجهه ، وحرم الله صورته عليها ، قال رسول الله ﷺ :

فأقول : يارب ، شفعنى فى من وقع فى النار من أمتى ، فيقول الله عز وجل : أخرجوا من عرفتم ، فيخرج أولئك حتى لايبقى منهم أحد ، ثم يأذن الله فى الشفاعة . فلايبقى نبى ، ولاشهيد إلا شفع « الحديث بطوله » .

* * *